بين رجال الدين والفلسفة

تمهيد . . .

للأستاذ محمد يوسف موسى

هذا موضوع لا زلت به حفياً وله متطلباً . تصديت لبحثه منذ زمن ، وقرأت لأجله كثيراً من المراجع التي أرّخت الإسلام وحالة العلم والعلماء في العصور المختلفة . وقد أعلم أن بحث الخلاف بين رجال الدين والفلسفة أبيّ الرمام عسير العلاج ، وأنه حرى أن يجعلني مرمى النظر الشزر وغرض الألسنة الحداد . ولكن الأيام وما خلفته من قداسة على بعض رجال الدين حالت دون نقد ما كان لهم من آراء وأحكام بالتحليل والتحريم والإيمان والتكفير ، وما كان لهذا من أثر جعل كثيراً يجمدون مع الزمن ويأبون إلا أن يجعلوا أصابعهم في آذانهم . ولكن الخصومة المشبوبة النار بين أنصار القديم وبين أنصار الجديد في الأزهر وغير الأزهر ؛ لكن هذا وذاك جعلني أستسهل الصعب ، ولا أتهيب الخطر ، وأحاول أن أبين — بعد استعراض مراحل هذا الخلاف وألوانه ومظاهره عصراً بعد عصر — أن ما كان يوماً ما بين الدين وبين الفلسفة ، بل كان بين بعض رجال الدين وبين الفلسفة لبواعث يرجع بعضها لحب الدين والعمل على الذب عنه ، وبعضها يرجع للجهل والتعصب وحب الرياسات . هذا واجب يتعين على بعضنا أن يندب له نفسه ؛ لأنه مما يوجع القلب ويحز في الصدر ألا يزال الكثير — حتى في هذه الأيام — يرى ما كان يراه بعض الذين اتخذوا الدفاع عن الدين وسيلة لذيوع الاسم من أن هذا الفيلسوف ملحد وذاك كافر من غير بينة أو دليل ، إلا ما سمعه عن أحد أولئك الذين تقدم بهم الزمن ، دون أن يكلف نفسه محاولة الاطلاع على شيء من الآراء التي كانت السبب في الحكم بالكفر أو الإلحاد في الدين ، ودون أن يتعرف البواعث الحقة التي بعثت على هذه الأحكام ليعرف ما كان منها لله وما كان للدنيا وزينتها ! وأحب قبل كل شيء أن أجلو أمري وأشرح قصدي من هذه المحاولة .

١ — لست من القائلين ببقاء القديم على قدمه ، ولا من الذين يسيئون بعض الشيوخ لما شبوا عليه ، وانطبعوا بمرور الأيام به ، من الحياة حسب مناهج القرون الماضية وأساليبها ، والنزوف عن الجديد والتخوف منه ، وعدم القدرة على تحضير البحوث العميقة الشاملة التي تحتاج لكثير من مراجع لا طاقة لهم بالرجوع إليها .

٢ — ولست لهذا من الذين يرون أن شخصية الأزهر العلمية منوطة بجماعة كبار العلماء وما يقدمون من رسائل لا نعلم عنها شيئاً إلا أنها تتفق ومبلغ جهود مقدميها ، وإلا أنها صور لا يستغنى عنها المؤرخ لأنها تعبر عن الحياة التي حيوها والنهج الذي درجوا عليه

هذه الشخصية العلمية للأزهر يجب أن يخلقها — إن كانت غير موجودة — الشبان الذين واتتهم الوسائل ، أو تهيأت لهم السبل ، وعرفوا طرق البحث وأساليبه ، وعلى حبل الذراع منهم ما يدنيهم من الغاية ويقربهم من المقصد . فلنقتصد من أجل هذا في اللوم ، ولنعمل على تدارك ما عجز عنه الآخرون غير ملومين ، إذ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها

إن في ميدان العمل لمتسعاً لجميع الجهود الصادقة . هناك مثلاً كتب علم الكلام في حاجة شديدة لمن ينفي عنها ما دخلها من آراء غير صحيحة النسب لمن تعزى إليهم من الحكماء والفلاسفة وغيرهم من أصحاب المذاهب الكلامية . هذه الكتب يجب أن يتوفر على دراستها نفر من الأكفاء الذين درسوا علم الكلام على النحو المعروف في الأزهر ، وآخرون من الأزهريين الذين درسوا الفلسفة الإغريقية في مصادرها الصحيحة ، ليكون في مقدورهم تقويم ما فيها من تلك الآراء ونسبة ما يصح منها لأصحابها ، وتبيين ما دخل علم الكلام من فلسفة اليونان تبييناً

أما بعد . فهذه أمثلة مما اضطلع به فضيلة الأستاذ الأكبر الإمام المراغي من توجيه للأزهريين في « أيام الرواق » لم نقصد بها إلى الاستيعاب وإنما أردنا تنبيه الأساتذة والإخوان والأبناء إلى وجه العبرة منها ليستخلصوه وليعتبروا به ، وليعلموا أن مجال العلم والتحقيق أوسع وأجدى مما يتصوره عليه سادتنا الأعلام « أعضاء الجماعة » ، أولئك الذين قضوا عاماً كاملاً يتناقشون في حملة العرش ، وما صفتهم ، وهل هم أوعال أو غير أوعال !

محمد محمد المدني
المدرس بكلية الشريعة